الحالمون والكادحون

بقلم : رجاء الدرعي

يوم التقيت به كنت اصيف مع أهلي في بلدة الزبداني . أقسا ذلك الصيف في بيت حائم على سفح الجبل المطل على سهل الزبداني الأخضر الجميل . كان لقائي بفؤاد صدفة لم تدبرها ارادات بشرية ، ولا أدري ان كان يومها ارادة خارقة تدبر لقائي به .

وكان اللقاء عابرا . حين رأيته تم ذلك فجأة وانتهى بسرعة . رأيته شابا فارع الطول قدر الثياب رث المظهر بدا لي يومها كأنه احد عمال تعبيد الطرق لكن قدارة ثيابه ورثاثة مظهره كانت غير منسجمة مع الكتاب السميك الذي كان بيده ، أو مع الذكاء الذي شعته عيناه الحادتان ، أو مع الاعتداد والسيطرة التي بدت في مظهره . كذلك لفت نظري يومها عرته الأنيقة المسدلة بدون تكلف على جبينه العريض .

كان الوقت صباحا ، حوالي التاسعة . وكنت أتمشى على الطريق المؤدي الى بلودان ، مع صديقتي لمياء ، ومع أمي وأخي الصغير مروان . أمي سارت أمامنا ، وامسكت بيدها معصم أخي مروان الذي كان يتملص منها فيفلت كالزئبق ، مرة تلو الأخرى فتلحق به وهي تهمس وتزمجر حتى تمسكه . كانت خائفة عليه من السيارات التي مرت بنا في سرعة مجنونة .

كنت يومها أصغي لأحاديث لمياء عن معاكسات الشباب لها وعن مغامراتها معهم . وسحرني ما اسمع . طبعا كانت تبالغ وتهول وتبهر حديثها بالوان وروائح من صنع الخيال . فلو أحصيت الشباب الذين ورد ذكرهم على لسانها لتعدى عددهم العشرين ، وكلهم حسب وصفها من أجمل الشباب وأغناهم وأكرمهم حسبا والمعهم مستقبلا . هذا في حين ان لمياء لم تكن جميلة ولا أنيقة فهي قصيرة ، وشعرها كث ، وعيناها صغيرتان مشرقتان كعيون الصينيات ، وأنفها عريض مفلطح ، وفمها كبير . وأمي وأبي كانا يشجعاني على مرافقتها لأنني الى جانبها ازداد جمالا عن جمالي الحقيقي حتى لأبدو قمرا برفقة نجمة . وكانت لمياء مراهقة لم تتخط السابعة عشرة بعد ، في حين كنت في التاسعة عشرة . رغم أنها أصغر مني فقد تهوفت على هذا العدد الضخم من الشباب ، منهم من أحدثها في سيارته الفخمة في « مشاوير » طويلة جميلة ، ومنهم من دخلت معه السينما مرة وأخذت معه

الموعد مرات ، ومنهم من انتظرها ساعات طوال في زاوية أحد الشوارع ، ومنهم من اشترى لها حلية أو هدية ما ، ومنهم من أرسل لها يشكو غرامه ويبكي عذابه، ومنهم من هـــدد ان ينتحر اذا لم تحن عليه بنظرة رضا او ابتسامة تشجيع أو قبلة حانية .

طبعا كانت تبالغ وتهول ، فاما أحمل منها ، واكثرها بعامين ، ومع هذا لم يدخل حياتي العاطفية ســوى شـــاب واحد مسكين أعرج فقير . لا أدري كيف تعرف علي ، ولكني لاحظته ذات يوم يقف عند مدخـل الزقاق المؤدي الى بيتنـــا ويتطرني هناك كل صباح حين أذهب الى المدرسة ، ثم يتبعني حين أصل اليهـا ، ويتطرني كل مساء عند باب المدرسة ويتبعني حتى أصل الى بيتنا . كان يعمل هذا كل يوم، ستة ايام في الأسبوع ولكنه لم يبه قط بكلمة ، لكن عينيـه كانتا تنطقان بحب مولع حارق . ووجهه كان يعبر عن نشوة عذبة وعذاب دفين. وبعد حوالي ثلاثة اشهر قررت أن أجعله يتكلم ويلقي في مسامعي المتشـــوقة الكلام الذي كنت أشـــتهيه . لم أكن أبه لشخصه على الاطلاق ، ولكني كنت مســـتعدة أن أغمض عيني وأســـمح لصوته أن ينساب الى أذني فقلبي يحمل اليها قصة حب ، أو حديث غرام .

وحين قررت أن أفك عقدة لسانه، بقيت أياما وليالي ارسم الخطة . كانت خطة ساذجة . لدى عودتي من المدرسة الى البيت سأترك طريقي المألوف واتخذ طريقا آخر أطول بين الأزقة الضـــيقة المتعرجة ، ثم اذا تبعني ادخل عطفـــة مسدودة أعرفها ، واقف تحت مدة باب منعـــزل لوحـــا بحيث لو لحقني هنـــاك وكلمني او كلمني لا يســـمعنا أحـــد ، وكان هذا الباب يؤدي الى بيت خالتي.

واخيرا نفذت الخطة وسار كل شيء كما رسمته حتى وصلت ســـدة الباب المنعزل ووقفت تحتها . وحينذاك وقف عاشقي المسكين محتارا مذهولا . كان قد أدرك أن العطفة مسدودة ، وانه لا بد ان يرجع قبل ان يخرج احد الناس من بيته ويسأله عما يريد . كان عليه أن يفر في سرعة ، فاما أن يتقدم نحوي ويكلمني واما أن يعـــود . وحصلت أن يجبن في آخر لحظة ، فقررت أن اقطع عليه خط الرجعة ، واشرت اليه ان يأتي نحوي . فاحمر وجهـــه وجحظت عيناه وكاد يفقد توازنه ولكنه تقدم نحـــوي متربحا كالثمل .

وجلست له متصنعة الغضب .

« منذ مدة وانت تتبعني . ماذا تريد مني ؟ »

وثائرا ، وقافـــا ، واحتقن الدم في وجهه ، ورأيت الدمع يحول في عينيه .

فاشفقت عليه أكثر مما غضبت منه، وصرخت به قولي :

« لا تتبعني بعد اليوم ، والا فضحتك »

وأدرت له ظهـــري ، ودققت جرس الباب . فوقف لحظة ، ثم انصرف دون أن يبس ببنت شفة . ولم أره منـــذ ذلك اليوم .

وهكذا خيب الجبان آمالي . ولا أنكر

امي افتقدته كثيرا حين اختفى من حياتي ، وافتقدت الكثير من بهجة الحياة التي كنت استمتع بها حين كان يحميني كذلك كان شعوري بوجوده خلفي كل يوم ، وان عينيه يتفحصان قوامي وجمالي ومشيتي وحركاتي في اعجاب ، هذا الشعور كان قد اصبح بالنسبة لي عادة استمرأتها . وحين اختفى خلت حياتي من هذه العادة التي حنت اليها أكثر من مرة . كذلك كان وجوده الصامت في حياتي نوعا من المغامرة المريحة ، وباختفائه زالت من حياتي مغامرات الغرام التي كنت حد مشتاق اليها .

ولهذا كنت اطرب لاحاديث لمياء . ربما كانت تبالغ وتهول وتسرح الواقع بالخيال . ماذا يهم ؟ لديهم ان كانت قصصها واقعا أم خيالا مادامت تملأ بعض الفراغ في حياة قلبي . ولهذا كنت دائما أستمع لها في شوق وسعادة

ويوم التقيت بفؤاد كان لطف الجو وسحر المناظر حولي من جمال شامخة وبساتين مخضرة وأزهار عطرة وأشجار مثقلة بالثمار الحمراء والصفراء والسوداء ـ كل هذا كان يهيئني نفسيا الى أن أفتح قلبي للحب ، ولأحاديث الهوى وقصص الغرام . ولهذا كانت قصص لمياء يومها جميلة ساحرة مؤثرة .

وفجأة أفلت أخي مروان من أمي ، وراح يعدو في عرض الطريق وكأنه يتحدى أمي ويتمرد عليها . وصاحت أمي في هستيرية مذعورة ، ولفت به ثم عثرت بحجر ووقعت . وكان هذا سر مروان فراح يمعن في العدو وكأنه مسجون أفلت من سجنه ، وهتفت بي أمي :

« امسكيه حالا ـ امسكيه والا داسته السيارات » .

وبهمة مشاكسة سللت نفسي من الأحواء العاطفية العذبة التي غمرتني بها لمياء ، وبدأت أطارد مروان . وما كنت أعدو عشرين مترا حتى اشتعلت الأرض عن فؤاد . وفي طرفة عين كان مروان بين ذراعيه القويتين « يتلمبط » كالسمكة في شبكة . وسار فؤاد يحمله المرعج بحنو وفي نظراته بريق غريب وفي وجهه ابتسامة تركزت حول شفتيه المكتنزتين وعمه المستدير . وحالما وصلني وضع مروان على قدميه وناولني ذراعه الصغيرة وقال لي مداعبا

« هذا الولد يحتاج الى طوق ، والا فان الأرض لا تنشق دائما عن عفريت مثلي ليمسكه » .

وفي الحال استدار على عقبيه وسار بضع خطوات ، ثم انحنى ليلتقط كتابا ضخما كان قد سقط منه على الأرض ، ثم عاود سيره واختفى بين الصخور والدغل المتناثر هنا وهناك على سفح الجبل .

حدث كل هذا وأنا واقفة متسمرة مشدوهة . وحين انتهى كل شيء باختفاء فؤاد عن نظري نبهت الى رشدي ووجدت يدي قابضة على ذراع أخي مروان في نفس الموضع الذي وضعتها عليه يد الرجل الغريب فؤاد . كانت أصابعي تضغط لا شعوريا ذراع مروان في عنف مما جعله يصيح في ألم مذعور ، فاستيقظت على صياحه وعلى ضحكات

لميـــاء التي كانت الآن تقف بحيائي وتهمس في أذني

« ما أجمله ! في حياتي لم ار احمل منه ! »

واحمر وجهي خجلا . طبعا لم ارد يحمر ولكني شعرت بالدم يصـــعد الى وجهي . ولكي استر موقفي ومشاعري عن لمياء صحت بأخي مروان وانا أجره نحـــو امي التي كانت قد نهضت من عثرتها وراحت تصلح حالهـــا وتنفض الغبـــار عن ملابـــها الانيقة الغالية .. وناولتها ذراعه وانا أنهره

« امســـك يد امك يا كلب . يعني لازم تفضحنا وتفكد عيشتـــنا ؟ » وزاد صياحه مما جعل امي تنهرني معنفة :

« اتركيه يا مجنونة ! قلت اتركيه . تعال يا حبيبي تعال . »

واعطـــى تدليلها له بدل التعنيف ، فدفعته نحوها في عنف مما جعله يزداد صياحا وحمل امي تنهال على بلطمة .

وهكذا تم وانتهى اللقاء الأول بيني وبين الرجل الذي ملأ حيـــاتي طبـــلة عام ونيف بعد ذلك اليوم . وبعد ايام من هـــذا اللقاء قررت أمي اننا بلـــا كفايتنا من الاستجمام الذي أحاله مروان بمشاكله الصبيانية الى جحيم ، وعادت عليه في عنف ، وخاصمته في قسوة ، بنا الى بيتنا في دمشق .

كانت صورة فؤاد المغربي هي كل ما عدت به من التصييف في الزبداني، صورة غامضة غير واضحة المعالم لشاب فارع القـــامة قدر الثياب رث المظهر وكانه احد عمال تعبيد الطرق . ولكن بيده كتاب ضخم وله عينان نفاذتان ، وفم ممتلىء مدور باسم ، وغرة جميلة منسدلة بدون تكلف على جبينه العريض، وفي مظهره اعتداد وقدرة على السيطرة. الصورة كانت شريطا متحركا لهـــذا الشاب تنشق عنه الأرض فيخرج منها ماردا ينقض على مروان فيمسكه ويحمله الى بين ذراعيه ، ثم يناولني ذراعه وفي عينيه نظرات غريبة وحول شـــفتيه ابتسامة ســـاخرة ، ويقول لي بعض كلمات ، ثم يستدير على عقبيه ويسير نحو كثب سقط منه ، فيلتقطه ويستانف السير ثم يختفي بين الصخور والرمل . ثم ياتيني صوت لمياء الخبيرة بالنفـــاب يهمس لي في مكر « ما أجمله ! » ويظل الصـــوت يتحول الى اصداء تعوق في اعماق روحي الحائمة الى الحب والى الرجال . « ما اجمله ... ما أجمله .. ما أجمله ! »

وفي دمشق رحت اقضي ســـاعات وحدتي وكثيرا من ليالي مع هذه المجموعة من الصور . وراح خيالي يضفي عليهـــا الوانا من الخيال غريبة ساحرة حدادة لا تقاوم . ورحت اعيش مع هذه الصور أحداثا جميلة ـ فلقد صنعت منهـــا عرائس الأحـــلام ، رفيق الحيـــاة ، وأبا أولادي ـ واحببتـــه في عنف ، وغرت عليه في عنف ، وخاصمته في قسوة ، وصالحته في حنان ، ورحمت اليه تائبة، وبكيت بين يديه نادمة ـ الف صـــورة وصورة نسجتها حولنـــا ، أنا وعريس أحلامي الذي عدت بصورته من الزبداني، ومن أجـــله رفضت ثلاثة رجال طلبوا يدي ـ لأن نظراتهم لم تكن تعادة ، ولأن

عيونهم خالية من البريق الساحر ، ولان حواجبهم لم تتوجها عرة انيقة مسدلة ، ولان طولهم لم يكن فارعا ، ولانهم لم يخرجوا فجاة كالعفاريت من بطن الارض اولان اوقات معينهم لم تمهد لهما لمياء بقصص الحب ومغامرات العشاق والغرام .

وانقضى الصيف وملاه عام دراسي ثم صيف تان ، والصورة التي عدت بهما من الزيداني ما تزال حية في خيالي نشيطة في فؤادي . ولكن حيويتها ونشاطها كانا قد فقدا الكثير من عنفهما، وتركاني اكثر استعدادا للتعاون مع الواقع ولقبول عريس احلام آخر . ومن يدري ، فربما لا اعرف الشاب الذي رأيته صرحة في الزيداني لمدة قصيرة ، بعد هذه المدة الطويلة .

وكنت في هذا الوقت على وشك ان ابدا آخر عام دراسي لي في الدراسة الثانوية .

كان اول يومين في المدرسة عاديين جدا . وجوه المدرسين مالوفة ، وكذلك وجوه زميلاتنا التلميذات ، وبينهن لمياء ، وكذلك جو المدرسة كله ، بفصولها وممراتها وجدرانها وحجراتها كان كله مالوفا . وروتين الحياة المدرسية كان كله مهدا به ـ جرس ، طابور ، دخول الفصل ، شيء من الصحيح ، استاذ يدخل ، هدوء ، كتب تفتح وايد تمتد الى الاقلام ثم تسجل على الدفاتر ملاحظة هنا وحملة هناك ... ثم جرس، ويخرج الاستاذ ، ويبدأ الصحيح من جديد .

الساعة الرابعة من اليوم الدراسي الثالث كانت ساعة التاريخ ، قرع الجرس ، وهدأت التلميذات ، وملأ الجو شعور ترقب وانتظار لمجيء المدرس الجديد ـ فقد علمنا يومها ان ادارة المدرسة تعاقدت مع أستاذ للتاريخ شاب وجديد على المدرسة .

وفجاة وقف عند الباب شاب وسيم جدا ، فارع الطول ، ذو عينين بعاديتين وفم مستدير ووجه باش مبتسم ، وغرة انيقة مسدلة على جبينه العريض . ثم تقدم الى طاولة المدرس بخطوات سريعة ومشية معتدة واخرج من حقيبته كتابا وبعض الدفاتر وقدم نفسه باسم «فؤاد العول» وضحكت التلميذات بالصحك ، وشاركهن في ضحكهن بعد ان أكد لهن انه هي الحقيقة « عول » وديع لا يؤذي احدا ، ولا سيما البنات . ثم بدأ يشرح الدرس . لم افهم يومها شيئا . كنت أعاني من شعور ملح باني اعرف هذا « العول » ، ولكني لم استطع ان اتذكر اين ومتى رأيته . وظل التساؤل المعذب يلح علي في عناد ـ « اين ؟ » ، « متى ؟ » « اين » ، « متى ؟ » واتنهى الدرس دون ان أعرف ما قيل فيه ، ودون ان يسمعني الجواب على تساؤلاتي الصامتة الملحة .

بعد يومين كان الدرس-الثاني درس تاريخ ، ودق الجرس ، ومرت ثوان ودقيقة وثلاث وخمس دقائق ولم يات المدرس . ثم تسيبت التلميذات ان مدرسنا سيحضر او انهن في مدرسة فرحن يهرجن ، او يتحدثن عن آخر فيلم أو تردي احداهن للاخرى قصة مغامرة غرامية لها او ... وفجاة انشق الباب عن رجل كان فؤاد العول .

وادهشت المفاجأة بعضهن فبدت على صيحات محنوقة مكتومة . وقال الرجل وهو يحدجهن بنظرات مؤنبة حادة ووجهه مكتس بابتسامة تركزت حول فمه المستدير وشفتيه المسلئتين

« يبدو انكن لم تعتدن ان تتشوق لكن الارض عن عفاريت .. »

لم اسمع ما قال بعد ذلك ، اذ قفز قلبي فجاة ، وعرفته . لقد وجدته

أخيرا ، وجدت حبيبي ، عريس أحلامي الذي خاطلته فجاة منذ عام وصيفين .

لكم احببت ذلك الطول ، لكم احببته

وكم سعدت بالدراسة على يديه ذلك العام . عبدته عبادة ، وعبدت مادة التاريخ ، وعبدت المدرسة . لم يكن في الدنيا كلها سوى كتاب التاريخ ، والمدرسة ، وايام الاثنين والاربعاء ، وانا ... وهو ، غول الحسب ، فؤادي

وقد عرفني حول عرفني منذ ثاني درس . كان الدرس يومها قد انتهى ، فراح يضع كتبه ودفاتره في حقيبته . وخرجت التلميذات الا اثنين او ثلاثا ـ لا أدري كم بالضبط ـ كن يسألنه تفسيرا لبعض الأحداث التي ذكرها في الدرس . ووقفت وراءهن أتفهم حركاته وكلماته لأتحقق من هذا كله زادا أتزود به حتى يكون درس تاريخ ثان . وحانت منه التفاتة الى . وخفق قلبي بعنف . وتوقف عن الكلام فجأة . ثم سألني وهو يبتسم :

« هل رأيتك من قبل ؟ »

وتلعثمت ، وفاهت ، وتاهت ، وهززت رأسي بالايجاب .

وضحكت التلميذات . ولكنه أنقذني حين وضع كفه على جبينه وهتف في انتصار :

« نعم . طبعا رأيتك . انت أخت الولد المعربيت الذي امسكته لكم على طريق الزيداني ـ بلودان » .

وسكت قليلا ، ثم أراني يده وقال وهو يبتسم :

« أتعرضين لماذا أذكر ذلك اليوم ؟ لقد عضني أخوك في هذه اليد عضة أدمتها . اما زال مسعورا ؟ »

وكركرت التلميذات ضحكا . وضحك هو الآخر وهو يحمل حقيبته وينصرف .

وضحكت أنا أيضا ضحكة غبية معتقلة ، وكاد يغمى علي ، ولكنه أنقذ الموقف بخروجه السريع .

نعم ، لقد عرفني ، صحيح أنه لم يبد اهتماما خاصا بي ، ولكنه لم يكن يستطيع ، موقفه مني كأستاذ لتلميذة يمنعه من ذلك ـ انه شريف ، وجميل ، وأنا لذلك أحببته .

ولا شك أنه أدرك من تصرفاتي أني أحبه ، أعبده . ولكنه اختار أن يتجاهل ذلك . لقد كان نبيلا ، ولم يستغل علاقته الرسمية بي ، ولهذا أحببته أكثر ، ان ممكنا أن أفعل أكثر أحببته بكل جوارحي ، في كل وقتي . ومضى العام قصيدة ، لم يكن فيها سواه وأنا والمدرسة ، وسوى التاريخ في يومين في درسين .

ونجحت ذلك العام في امتحان الشهادة الثانوية بتفوق . واستغرب الجميع هذا التفوق . فقد كنت خلال سني الدراسة كلها مني لا يرجى لهن السبق في ميدان العلم . ولكن هذا الميدان اقترن هذا العام بحلم حياتي ، بعرس أحلامي ، بالقول الحبيب .

أهل أدهشهم ان أجتهد اجتهادا لم يعهدوه مني فيما سبق . وأدهشهم أكثر أن أنجح ذلك النجاح الباهر الذي لم يتوقعوه . ولكن أهل ليسوا من النوع الذي يلح في تقصي الأسباب . انهم بالفوز الجديد بسرعة .

وادارة المدرسة أيضا دهشت ، ولكن المدرسين والمدرسات مشغولون بالكثير من الواجبات ، ولا يجدون الوقت الكافي

للثرثرة والتساؤل . فرحوا جميعا بنجاحي ، فهو يساهم في اعلاء سمعة المدرسة ، وهذا هو اعظم ما يهمهم .

ودهشت زميلاتي التلميذات،وتساءلن كثيرا، وتبرع بعضهن باقتراض الاجوبة. ولم تدرك احداهن الحقيقة . وما تبرعت قط بالقاء الاضواء على هذا التحول الذي اصابني . احتفظت بقصتي لنفسي ، وكنت النفس على ما فيها ، سعدت به وحدي ، وعشت له وحده . واكتفيت به حقيقة وحلما ووهما وخيالا . ما دام في الدنيا فؤاد الفول ، فانا مع الدنيا كلها في سلام ووئام .

واحتفلت المدرسة بالناجحات . ودعيت الى الاحتفال وقد دربت كما لم اتدرب من قبل . فقد كنت داعيه الى حفل سيحضره . ولا شك انه سيعرف انني لم اتدرب الا له ، لتتمتع بجمالي عياءه . تترسم صورتي في قلبه. لاشك انه سيعرف . فهو يعرف منذ امد انني احبه ، ولكنه اختار ان يتجاهلني ، لانه استاذ وانا تلميذته . ومن الاخلاق والنبل الا يسهل الاستاذ تلميذاته ، ولكن الليلة تختلف . لم اعد تلميذته ولم يعد استاذي وانما نحن الآن رجل وامراه كلانا حر . وانا جميله، واحبه، واعبده ، وهو لا شك ادرك ذلك منذ امد طويل ،وهو شاب ، واعزب، وانا جميلة ومستعدة للارتماء بين ذراعيه لدى اول اشارة منه .

وفي قاعة الاحتفال وقفت مع بعض زميلاتي الناجحات، كنا نتبادل الطرائف المضحكة عن ايام التلمذة وكانت عجائز يستعدن ذكريات ماض بعيد .. بعيد . سعيدات . اما انا فكنت ارقب الباب وكانت زميلاتي يضحكن ويتهمنني باستمرار في انتظار حبيبي الذي سيباغت بذراعي بعدا بعدا عن هذا الحفل ، وعن الناس، الى دنيا تكون لي وله وحدنا ... وحدنا فقط .

واطل حبيبي

ولكنه ... لكنه لم يطل وحده . كانت تتعلق بذراعه فتاة اخرى وكان في اصبع كل منهما خاتم خطبة .

لكن يا الهي انها لمياء !

كيف وقع في حبائلها كيف روضته ذات الشعر الكث والانف المريض المقطع والقامة القصيرة . كيف ، من دون الجميلات ، حظيت هذه القبيحة بفؤادي . بعقلي .

وانسحبت من الحفل والدموع تنهمر من عيني. لم اعرف كيف وصلت البيت، ولكن حين وصلت الى غرفتي اغلقتها على نفسي وادرت وجهي الى دموع .

بعد اسبوع ، كنت طريحة الفراش ، وكانت احداهن مرضى قد تسربت الى زميلاتي .. فجاءتني لمياء تقص علي كيف اقتنصت عريسها الجميل . وادركت يومها كيف ينتصر الكادحون ويفشل الحالمون امثالي .